**الأستاذة خنصالي/جامعة سطيف 2/مقياس فلسفة التأويل في العصر الوسيط.**

**الفئة المستهدفة : السنة الثانية ليسانس.**

**المحاضرة الثانية : التأويل عند اليونان – الرمز-**

ارتبط التأويل عند اليونان بالمنطق الآرسطي ، كما ارتبط بأسطورة " هرمس"، وقد كان لهذه الأسطورة الفضل الكبير في نشأة التأويل عند اليونان لارتباطها بالهرمنوطيقا، وهي نظرية التأويل فيما بعد.

* تأتي كلمة «هرمنيوطيقا» من الفعل اليوناني Hermeneuein ويعني «يفسِّر»، والاسم Hermeneia ويعني «تفسير»، ويبدو أنَّ كليهما يتعلق لغويًّا بالإله «هرمس» Hermes رسول آلهة الأولمب الرشيق الخطو الذي كان بحكم وظيفته يتقن لغة الآلهة، ويفهم ما يجول بخاطر هذه الكائنات الخالدة، ثم يترجم مقاصدهم، وينقلها إلى أهل الفناء من بني البشر، ويذكر كلُّ من اطَّلع على الإلياذة والأوديسا أنَّ هرمس كان ينقل الرسائل من زيوس — كبير الآلهة — إلى كل من عداه وبخاصةٍ من جنس الآلهة، وينزل بها أيضًا إلى مستوى البشر، وهو إذ يفعل ذلك فقد كان عليه أن يعبر البون الفاصل بين تفكير الآلهة وتفكير البشر.
* كلمة هرمنوطيقا تشير إلى الإله المجنح هرمس والكلمة وثيقة الصلة بكلمة هرمتيك التي تعني الغموض والسحر أو الدفين. وهرمس في الأصول المصرية واليونانية القديمة هو الإله المعادل والمتحول عن إله المصريين القدامى الإله " تحوت". حيث قيل أنه كان كاتم سر الآلهة الحكيم، وهو سيد التمائم السحرية، إنه رمز للكلمة في تنوعها وفي نشدانها للمتعالي.
* وتقول الأساطير: إنَّ هرمس كان لديه خوذةٌ سحرية (طاقية هاديس) تجعل خفيًّا عن الأعين، وتمكنه من أن يظهر فجأة وقتما يشاء، وكان لديه خفان مجنحان لكي يحملاه بسرعة عبر المسافات الطويلة، وعصًا سحرية يمكنه أن يُنِيم بها من يشاء ويُوقِظ، فهو لا يعبر المسافات الفيزيائية والفجوات الأونطولوجية بين الآلهة والبشر فحسب، بل إنَّه ليجتاز البون بين المرئي والمحجوب، وبين اليقظة والمنام، وبين الوعي واللاوعي، إنَّه الإله الزئبقي (عطارد الرومان) للخواطر الشاردة والإلهامات والبصائر المفاجئة، وهو أيضًا لص، بل هو إله السرقة وقطع الطريق وضربات الحظ، وكان هرمس أيضًا إله مفارق الطرق والتخوم حيث تتراكم الصخور Herms لإجلاله، ولم يكن يُقام مذبحه في الأزمنة القديمة إلا في الطرق البعيدة والسُّبل المنقطعة، وهرمس هو مُرشد الأرواح إلى العالم السفلي، ومن ثم، فهو يعبر الخط الفاصل بين عالم الأحياء وعالم الموتى، بين العالم الأرضي والعالم السفلي (هاديس)، إنه بحق إله الفواصل والفجوات، إله التخوم وأعتاب كل شيء.
* كان هرمس رسول الآلهة إلى البشر، يتميز بسرعته ورشاقته، عمله هو نقل رسائل وأسرار آلهة أوليمبوس، كان قادرا بنعله ذي الأجنحة على تجسير الفجوة بين الإلهي والعالم البشري. يصوغ بكلمات مفهومة ذلك الغموض القابع وراء القدرة البشرية على التعبير.
* إذن التأويل في أسطورة هرمس يعبر عن متاهة لا نهاية لها.
* لذلك يكتسب مصطلح "هرمس" طاقة رمزية جعلته يصل إلى مرتبة المذهب أو المدرسة، لأنه إله متعدد يرمز إلى المعرفة الكلية والتأويل الشامل. ويرمز إلى الفصاحة والتعدد التأويلي، والمعرفة الآتية من كل أنحاء العالم. فقد كان ذكيا ومحتالا ومقنعا، يحمل الشك واليقين في آن واحد، وظيفته هي ترجمة ما تجاوز الفهم الإنساني إلى شكل أو صورة يمكن للعقل الإنساني إدراكها، مما يعني أن الصور المختلفة للكلمة تقترح عملية تحويل الشيء أو الموقف خارج نطاق الفهم إلى مجال الفهم.
* ومن هنا يُنظر إلى هرمس الملقب ب"مثلث العظمة" باعتباره رمزا لاتحاد المتناقضات وتعايشها،تماما مثلما تتعايش كل الدلالات في النص الواحد. ولهذا أُدرجت الأسطورة الهرمسية منذ البداية ضمن دائرة التفسير الديني، أي ضمن مقاربة غايتها فهم نص ما انطلاقا من قصده، أي استنادا إلى ما يودُّ قوله هو، لا إلى ما يمكن أن يتسلل إليه من خارجه، فالتأويل هنا هو محاولة لاستعادة جزء من روح الأمة وتاريخها، إنه موجه نحو معنى بصياغة رمزية ، أي نحو حقيقة منشرة في كل الأنشة الإنسانية في اليونان آنذاك.
* إن اكتشاف هرمس هو اكتشاف للنص الرمزي الذي لم يكن معروفا عند الإغريق من قبل ، وقد كان لهرمس الانتصار والمجد في القرن الثاني للميلاد، حيث شهد هذا القرن فترة الانتظام والإسلام السياسيين، تجمع فيما يبدو كل أفراد الإمبراطورية لغة وثقافة مشتركة. ونظام بهذه الأوصاف.
* المراجع :
* دايفيد جاسير : مقدمة في الهرمنوطيقا.
* عبد الغني بارة: الهرمنوطيقا والفلسفة.
* سعيد بنكراد : سيرورات التأويل.
* عادل مصطفى: فهم الفهم، مدخل إلى الهرمنوطيقا.

**المحاضرة الثالثة : التأويل عند المسلمين (التراث الإسلامي)**

* يشكل التأويل عنصرا أساسيا في القول العقدي في الإسلام، من حيث كونه قولا دفاعيا حواريا تناظريا بالقول المخالف، بحيث أن هذا الجنس من القول الإسلامي استطاع أن يجمع المقالات المخالفة من داخل الملة وخارجهاعلى لغة واحدة هي لغة الكلام في الدين.
* فقبل أن يظهر بين الدين والفلسفة ما نعرف من خلاف وخصومة، ظهر تعارض بين الآيات، وللتوفيق بينها لجأ العلماء إلى التمييز في بعض النصوص بين المعاني الظاهرة والمجازية وبين المعاني الباطنة الحقيقية، فكانت المشاكل التي من هذا الضرب تُحل بكشف المعنى الباطن للنص المتشابه، وطريقة التوفيق هذه التي سموها التأويل تكفي لإزالة كل ما يُظن من خلاف وتناقض بين الدين الفلسفة.
* **علم الكلام**:
* ارتبط التأويل بعلم الكلام، لا سيما في عصوره المتقدمة، إذ تعتبر التحولات التي طرأت على على القول العقدي وتحوله من اعتزال إلى أشعرية إلى ماتيردية نوعا من إعادة القراءة وإعادة الإنتاج، كما يمكن قراءة التطورات التي تحدث داخل المذهب الواحد في هذا الاتجاه . وكانت الآيات المحكمة والمتشابهة، وظهور أسلوب التأويل الذي استخدمته الفرق الإسلامية للتدليل على صحة مواقفها هي الباعث على نشوء علم الكلام.
* ويمكن أن نلاحظ في هذا الصدد تطور مقالة خلق القرآن الاعتزالية التي يفترض أنها كانت رد فعل على مقولة المسيح الأزلي"كلمة الله" إلى مقالة الكلام النفسي وخلق العبارة لدى الأشاعرة، والاعلاء من شأن العقل لدى المعتزلة.
* أن نشأة علم الكلام كانت نوعا من النظر العقلي في الشريعة لدى متقدمي المعتزلة حتى أخذ عليهم الناس إسرافهم في استعمال العقل الذي هو بمعنى البحث والنظر الإبداعي حتى انتهى الامر إلى انتصار المذهب الاشعري في شكله التقليدي المتأخر واعتماد مذهبهم رسميا في أغلب البلاد الإسلامية .
* إن صراع التأويلات عند الفرق الإسلامية لا يخرج عن إطار حملها على الظاهر من المعنى، وإذا كان النزاع في تأويل الكلام كان أولى معانيه به أغلبه على الظاهر، إلا أن يكون من العقل أو الخبر دليل واضح على أنه معني به غير ذلك.
* قد ورد عند المتأخرين من المتكلمين والأصوليين وهو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر يحتمله لوجود دليل يقترن به يمنع من إجراء ظاهر اللفظ. وهذا النوع هو الذي استخدمته المعتزلة – بمعناه - في صرف آيات الصفات واستعمله أكثر المتأخرين في تأويل نفس الآيات
* وهذا المعنى للتأويل – وإن لم يرد اصطلاحا في كتابات المعتزلة – إلا أنهم قد جروا عليه في تأويل آيات الصفات وصرفها عن ظاهرها زاعمين أن قرينة التنزيه هي التي توجب عدم أخذ تلك الآيات على ظاهرها وإلا وقعنا في التشبيه.
* **ابن رشد:**
* ينتقد ابن رشد علماء الكلام في أنهم يستعملون الطرق الشعرية والخطابية أو الجدلية ولو أن مقاصدهم حسنة فإنها مضرة بالحكمة والشريعة فقد صار الناس بسبب هذا التشويش والتخليط فرقتين فرقة انتدبت لذم الحكماء والحكمة وفرقة انتدبت لتأويل الشرع وروم صرفه إلى الحكمةوهذا كله خطأ بل ينبغي أن يقر الشرع على ظاهره ولا يصرح للجمهور بالجمع بينه وبين الحكمة لأن التصريح بذلك هو تصريح بنتائج الحكمة لهم دون أن يكون عندهم برهان عليها.
* يؤسس رأيه في التأويل بالبرهان والذي لا يؤدي قطعا إلى مخالفة ما ورد به الشرع، ويعتقد أن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له. ولا يوجد تعارض بين ما يقول به ظاهر الشرع وما يؤدي إليه البرهان النظر في نصوص الشريعة بالاستدلال كما هو حال الفقيه الذي يلجأ للقياس الشرعي لاستنباط الاحكام أما إذا كان ما وصل إليه البرهان مخالفا لما يدل عليه ظاهر الشرع فلا حلّ إلا أن يُطلب بالتأويل.
* التأويل عند ابن رشد " هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يُخل في ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الأشياء التي عددت في تعريف أصناف الكلام المجازي" (فصل المقال)
* لا يتردد ابن رشد في الانتصار للتأويل البرهاني بما هو نظر في النص وتمعن بالعقل وما دام أن هناك إمكانية لوجود تعارض بين ما يصل إليه البرهان وظاهر الشرع فإن التأويل في مثل هذه الحالة يكون ضرورة لا أن ينتصر لظاهر الشرع بدعوى أنه لا يصح الخروج على ظاهر مجمع على صحته نقلا ورواية.
* فالتأويل البرهاني هو مساءلة فلسفية لنص الوحي يبحث عن الحقيقة المضمرة الكامنة في الشريعة والتي عليها مدار الأمر كله وهو دعوة إلى إعادة فهم الماضي مساءلة وجدلا عبر وسيط العقل.
* يعتقد ابن رشد أن أن الاجماع حول ما يجب أن يحمل على الظاهر من النصوص أو ما ينبغي تأويله أمر يصعب تحقيقه أو يعز طلبه فهو يدخل في دائرة المتعذر بلوغه الممتنع حصوله لذا فلا أحد يملك أن يتهم أهل البرهان بخرق الاجماع في التأويل. والتأويل هو الاجراء الذي يعين على درء هذا التعارض وتقريب النقل من العقل.
* أما الغزالي يرى بقصور العقل وعجزه عن إدراك الأمور الغيبية بل إن له حدودا لا ينبغي له أن يتعداها.

المراجع :

* مجموعة من المؤلفين: موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام.
* عبد الغني بارة : الهرمينوطيقا والفلسفة.
* عمارة محمد : الاجتهاد الكلامي.

**المحاضرة الرابعة : التأويل المجازي (التراث اليهودي)**

* اهتم اليهود بتفسير وتأويل العهد القديم الذي يمثّل التراث اليهودي عندهم. إذ ظهر التأويل الرمزي أو المجازي كضرورة عند مفكّري اليهود في ظل الحضارة الهلنستية اليونانية التي نقلت النّص التوراتي من العبرية إلى اليونانية ( وهي اللغة الأكثر شيوعا آنذاك)، مما دفع الفيلسوف اليهودي فيلون السكندري كأبرز فيلسوف يهودي بمدرسة الإسكندرية إلى استخدام التأويل الرمزي للتوفيق والمزج بين التراث الفلسفي والدين اليهودي.
* أن من أهم أهداف هذا التأويل الرمزي هو تحويل أشخاص قصص التوراة إلى نحو حسن أو سيء من وذلك لإزالة أنحاء وجود النفس، حيث لا تؤخذ بمعناها الظاهري الواضح وإنّما للدلالات الداخلية لحالات النفس الغموض والتناقض الظاهري بين ظاهر النّص وباطنه أو معناه الخفي.
* ويذكر فيلون ثلاثة مصادر أساسية ساهمت في بلورة الطريقة الرمزية المجازية لقراءته للنّصوص التوراتية ويقصد بالمأثور التأويلات المجازية السابقة عن فيلون، وفهمها، وهي: الإلهام، البحث الشخصي التفكيري و المأثور والتي أعاد استعمالها بنفس الدلالة والرمز.

 - ويعد فيلون الاسكندري واحدا من الذين عُرفوا بهذا التأويل ، باعتباره " فيلسوفا إغريقيا من أصول يهودية ، كانت فلسفته متشبعة بفلسفة أفلاطون وأيضا بالتوراة، وتستلهم الأفلاطونية المحدثة ومذهب آباء الكنيسة " (16) . إذ نلتمس غاية فيلون القصوى في تحقيق تجانس بين أفكاره الفلسفية ومعتقداته التوراتية في ظل التأويل، وهذا ما يجعل من فعل التأويل أمرا ملحا لكنه مؤهل لأصحابه فقط، من الذين يحترفون طريقة التأويل الرمزي أو الأليغوريا. وأن دعواه هذه تروم تحليل المعنى القابع خلف الرموز. فالاليغورياهي عبارة عن منهج بلاغي ووضع هيرمنوطيقي -في الوقت نفسه - يستند إلى الخطابات والتأويل(17) . وكان صوفياً استبقت تقواه الشديدة تقوى بلوتينس وعقلية العصور الوسطى. وكان الله في كتابات فيلو هو الكائن الجوهري في العالم، وهو كائن غير مجسّد، أزلي سرمدي، يجلّ عن الوصف؛ في وسع العقل أن يدرك وجوده، ولكنه لا يستطيع أن يخلع عليه صفة ما، لأن كل صفة تعني التحديد. والذين يتصوّرونه في صورة بشرية إنما يفعلون ذلك لتقريبه من خيال البشر الحسّي. والله موجود في كل مكان.

* هذا ما يشير إلى ثمرة العلاقة بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي الذي أرساه العقل التأويلي المشبع بالديانة التوراتية، فحتى وإن فتح المجاز الباب للتأويل اللانهائي والمتعدد، فإن هذا لم ينفلت من السلطة الدينية التي كان يتحكم رجالها في حدودها (18) ،ذلك أن النص الديني محروس من طرف العقيدة ،مما يجعل التأويل خادما لها ، و من ثم حتى وإن أراد تجاوز الحدود فهو لا يكون ضد العقيدة التي يدافع عنها كل نص ديني .
* التخلص من صعوبات التفسير الحرفي الذي كان شائعا آنذاك، بالإضافة إلى الدفاع عن الديانة اليهودية من التفسير الأسطوري. حيث ما سعى إليه في هذه التأويلية الانتقال من الألفاظ الظاهرة إلى المعاني الخفية، ولكن بربطها بالجانب الأخلاقي والروحي . كما تقوم فلسفة فيلون على التوفيق بين الدين والفلسفة، حيث جعل الفلسفة في خدمة الدين، وهذا ما نجد أثره في الفلسفة الأوغسطينية المسيحية والمتمثّلة في التعقل من أجل الإيمان.
* بهذا كانت غاية التأويل عند فيلون الاسكندري - و قد تشرب باللوغوس اليوناني زمان مدرسة الإسكندرية - هي إجراء مصالحة بين الدين والفلسفة ،مما يجعل تلك الفترة مهمة جدا في تاريخ التأويل، نظرا لتطلع التأويل نحو المسائل الفلسفية في صورتها الحوارية ، وذلك عن طريق التمثل : تمثّل يستقي مصداقيته من واقع النص التوراتي عن طريق المجاز ، فالرمز وسيط ذهني بين المستوى الحرفي والمستوى الحقيقي. أن حركة التأويل المجازي في العالم اليهودي، وخاصة في عصر فيلون، كانت أكثر أهمية لاسيما في نتائجها البعيدة خاصة في المدارس المسيحية بالإسكندرية مما سمح لطريقة التأويل الرمزي المجازي الفيلونية أن تتخذ معنى و بعدا تاريخيين.
* المراجع المعتمدة:
* إميل برييه، الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الإسكندري
* عادل مصطفى، فهم الفهم، مدخل إلى الهرمنيوطيقا
* سعيدة خنصالي : أمبرتو إيكو نقد التأويل المضاعف.

**المحاضرة الخامسة : التأويل عند أوغسطين (التراث المسيحي)**

* أوغسطين (354-430) يعد من الذين تحولوا إلى المسيحية في سن ناضج، يعتبر أهم المؤولين في الكنيسة المسيحية الأولى. كان متأثرا بالفلسفة اليونانية والأفلاطونية .ووظف معرفته بنحو مؤثر في بلورة مبادئه الهرمنوطيقية.
* كانت الهرمنوطيقا المسيحية مزيجا من تقاليد القراءة والتفسير اليهودية واليونانية، وقد طور أوغسطين نظاما معقدا من القراءة الرمزية (كتابه اعترافات) حيث قدم تفسيرا رمزيا مفصلا من سفر التكوين، فالظلام يرمز للروح التي لا تزال دون نور الله. إذ لا يوجد نص منحصر بمعنى واحد.
* حاول أوغسطين حل الجدل الهرمنوطيقي القائم بين مدرستي الإسكندرية وأنطاكية، حيث طوّر نظرية في التفسير تشمل التفسير الحرفي والرمزي معا.وقدم مبادئ واضحة للتمييز بين التفسيرين، إلا أنه وفق أولويات الممارسة الروحية يكون الترجيح للتفسير الحرفي.
* أن كلمة "herméneutique" مشتقة من الكلمة الإغريقية herméneutikè المتضمنة على كلمة (technè) التي تحيل إلى "الفن" أو الاستعمال التقني لآليات ووسائل لغوية وغيرها قصد الكشف عن حقيقة شيء ما. وعليه تعني herméneutique "فن تأويل وتفسير وترجمة النصوص" وخاصة النصوص المقدسة والكتابات اللاهوتية كما كان ذلك شائعا في علم اللاهوت المسيحي وعليه يبين "أغسطين" Augustin في "Doctrina Christiana" أن الفكر ينتقل من الدلالة الحرفية والأخلاقية إلى المعنى الروحي. سواء في فن التأويل اللاهوتي أو فن التأويل الإنساني للعصور الحديثة، يتعلق الأمر بتأويل "صحيح" للنصوص واستخلاص معنى تنطوي عليه.
* يسعى إذن فن التأويل إلى الرجوع إلى المصادر الأصلية والبدايات الأولى قصد الحصول على فهم جديد ومتجدد لمعنى اخترقته وأنخرته جملة الممارسات والأهواء والرغبات والمخادعات والمغالطات. يتمتع فن التأويل بقوة تطهيرية (force purificatrice) تجعله يحقق ويجدد المعنى في اللحظة الراهنة بأساليب أكثر حيوية وخلاقة بعدما تآكل وتفكك واتخذ كرهان ولعبة لفرض الذات وتمويه الحقائق عبر تاريخه المتبعثر والمتشظي.
* كان أوغسطين حريصا على إحداث التوافق بين الفلسفة والدين المسيحي بسبل تأويلية ،إذ كان يعمل هو الآخر على تقديم المسائل الدينية في إطار عقلي فلسفي، متأثرا بالفلسفة اليونانية الأفلاطونية، والأفلوطينية ، وقد فصل بين العقل والنقل ، بما يعني أن الإيمان أولا ثم يأتي العقل ، وفق المقولة المسيحية الأثير آمن لكي تعقل ،إذ تكمن مهمة الفلسفة في الاعتقاد قبل التعقل(19) .ومن أهم تطورات الفلسفة الأوغسطينية في الشأن التأويلي ، ما يراه أوغسطين في أن تأويل الرسالة التوراتية ضروري للتكوين الجمالي للمؤمن : بما أنه يوفر له المعالم الضرورية لتوجهه الثقافي، وهذا ما قاده إلى الاهتمام بالعلامة التي تحمل التعلم ، فالتعلم محمول في أشياء والعلامة هي الأداة الحاملة له(20).
* ساهم من خلال الهرمنوطيقا تطوير "نظرية الإشارات " بمعنى أه لا بد لنا في قراءة أي نص ديني أن نلتزم بتحليل حذر وشامل للغة النص وبنيته النحوية من أجل منع أي استنتاجات غريبة لا أساس لها.فالكلمات عبارة عن دواليل أو إشارات تشير إلى المدلول الذي يجب أن لا يختلط مع الشيء الذي يشير إليه.
* اعتبر النصوص الدينية نصوصا بشرية تحيل إلى الله من دون الحاجة إلى اعتبارها نصوصا إلهية. فالإنجيل يستعمل دليلا إلى الحياة المسيحية ، من دون اعتباره ضروريا بذاته، وقد كان أوغسطين أُسقفا مما يعني أن ممارسته التأويلية عكست أفكار شخص عملي لا أفكار شخص أكاديمي منعزل. وكان يفرض على القارئ أن يكون متعلما وذكيا إلا أنه رأى أن الإنجيل متوفر للقراءة من حيث المبدأ لجميع الناس وليس فقط للنخب اللاهوتية، كما هي الحالة لا حقا في العصور الوسطى المتأخرة.
* كان أوغسطين يتبع الهرمنوطيقا المبكرة كما فعل "إيريناوس" و" ترتليانوس" في الرجوع إلى الحكم النهائي لقانون الإيمان داخل الكنيسة.أي هرمنوطيقا الإنجيل.

**المراجع المعتمدة:**

-غادمير: فلسفة التأويل، ترجمة محمد شوقي الزين.

-سعيدة خنصالي : أمبرتو إيكو، نقد التأويل المضاعف.

-أوغسطينوس : اعترافـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــات.

**المحاضرة السادسة : التأويل عند توما الإكويني.(التراث المسيحي)**

* توما الإكويني (1225-1274) قسيس كاثوليكي إيطالي من الرهبانية الدومينيكانية، وفيلسوف ولاهوتي مؤثر ضمن تقليد الفلسفة المدرسية، أحد معلمي الكنيسة الثلاثة والثلاثين، وأبو المدرسة التوماوية.
* أسس الأكويني فلسفة واقعية انتقائية، متأثرًا بالأرسطية والرواقية، إضافة إلى المسيحية والأفلاطونية المحدثة والأوغسطينية، كما تأثر بما كتابات شيشرون وابن سينا وابن رشد وابن ميمون اليهودى من شروح لأرسطو. تفهم توما الأكويني الميتافيزيقا الأرسطية من اصولها  الإغريقية ، واتَّهَمَ ابن رشد بتحريف فلسفة أرسطو، واستنكر الأطروحات التي كانت تنسب لابن الرشد في ذلك الوقت.
* أدرك تمام الإدراك أن الإيمان ليس علمًا لميًّا، وأنه يعتمد على العلم الإني في أسبابه أو علامات صدقه، وأن المعرفة الإنسانية تبدأ من المنظور وترتقي بالعقل إلى غير المنظور، فلا يصح اعتبار المعرفة الإيمانية شيئًا أول، ولكنها فائقة للطبيعة، ومن ثمة زائدة على الطبيعة، ومقصورة على زمان معين وأناس مخصوصين، فالأول هو المعرفة الطبيعية، ونرى من ناحية أخرى الفرق الكبير بين القديس توما وبين أرسطو، وكيف تتفق الفلسفة والدين مع بقائها فلسفة، وسنرى عنده أمثلة أخرى من هذا القبيل، والبراهين الخمسة التي أجملناها هي من الوجهة المنطقية برهان واحد يقوم على تقدم الفعل على القوة أو تقدم الكمال على النقص، ويتكرر بصدد وجهات عامة نتبينها في العالم وفي أنفسها ونصعد من كل منها إلى علة أولى، وإن أيًّا منها ليكفي للوصول إلى الله؛ لأن العلة الأولى من حيث هي كذلك تستلزم باقي الصفات، كما سنبينه في العدد التالي، ولكن اجتماع الأزلية يعطينا فورًا فكرة شاملة عن الله، فيجعلنا نتصور فورًا أن الله هو المحرك الأول الذي لا يتحرك، والعلة الفاعلية الأولى، والموجود الواجب لذاته، والكامل مصدر كل كمال، ومنظم العالم.
* لقد حاول توما الإكويني التوفيق بين أرسطو والمسيحية، وبين العقل والإيمان وهي المشكلة التي انصرفت إليها الفلسفة الإسلامية لتحدد مشروعية النظر العقلي ضمن النموذج اليوناني، هذه المشكلة قد أخذت حيزا واسعا في فلسفة توما الإكويني الإيمانية التي تقوم على العقل ومن ثم الانفتاح على لغة المنطق لإثبات وجود الله أين تعززت هذه اللغة بمبادئ العقلانية الأرسطية، ومن هذا المنظور فقد أعاد توما الإكويني صياغة الكوجيتو عند أوغسطين " إذا كنت مخطئا فأنا موجود " ليصبح على هذا النحو: " أعقل ثم أؤمن".
* لقد كان أساس مشروعه كلمة "التفكير العقلي" ويعني التفكير بنحو يتطابق مع عقل الله مما يعني أن تلك الكلمة كانت متمركزة حول الله ولم تكن كما أصبح لاحقا متمركزة حول الإنسان وتستند إلى طاقة الذهن البشري.وجعل من وظيفة العقل فهم ما يوحي به ويقوم بشرحه حيث يمثل سلطة المعرفة، إذ لا يمكن للإنسان أن يعرف شيئا ما والإيمان في نفس الوقت، ومن ثم فإن وضعية العقل في فلسفته تنطلق من الثورة على الفكر الدوغمائي الذي انتهجته الكنيسة التي غيبت سلطة العقل وجعلت من الخطاب اللاهوتي أساس فلسفة العصور الوسطى حيث تعارض العقل مع الإيمان.
* كرس الإكويني نفسه للفهم الفلسفي وأثبت أن الإنجيل هو المصدر الرئيسي للوحي والإلهام وسليم من أي خطأ (كتابه خلاصة اللاهوت).
* ومع أن الأكويني خالف ونقد ابن رشد، لكن لا يخفى تأثير هذا الأخير على الأكويني نفسه، سواء في طريقة الشروح بسرد النص وتحليله أو في جوانب أخرى، على سبيل الذكر لا الحصر، عندما يتناول الأكويني التفريق بين "ما نفهمه من طريق العقل، وما نعتقده من طريق الإيمان"، فهو يقترب من مفهوم ابن رشد في مسألة التوفيق بين الحكمة والشرع، وما يخص العلماء عن الجمهور أو العامة من الناس، إذ يؤكد الأكويني على أن ميدانيْ الفلسفة والتصور ميدانان منفصلان، ويجوز للعلماء أن يبحثوا في ما بينهم ما يعترض به على الدين، ولكن لا يحسن بالسذج من الناس أن يسمعوا إلى ما يقوله غير المؤمنين ضد الدين، لأن العقول الساذجة ليس لها من الاستعداد ما تستطيع أن ترد به على المعترضين، ويجب على العلماء والفلاسفة، كما يجب على الفلاحين، أن ينحنوا أمام قرارات الكنيسة، ومن واجبنا أن نهتدي بهديها في كل شيء.

**المراجع :**

* يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الغربية في العصر الوسيط**.**